إهداء

إلى روح أستاذى العظيم

وهل تصلـك كلماتى ودعـائى وأنت بين يدى اللـه فى عالم الخلـود واللانهائية بعد أن افتقدتـك فى عـالم الفناء... عـالم التغير والنسبية

زينب عفيفى

تصدير

مساء الأربعاء الموافق التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ٢٠١٢ رحل عن عالمنا الزائل أستاذ جليل، ومفكر عظيم هو الدكتور عاطف العراقي، انتقل من دار الفناء والزوال إلى دار الخلود والبقاء بعد رحلة شاقة قضاها فى محراب العلم والفكر والثقافة.. رحلة كان يحدوها الألم والأمل، التشاؤم والتفاؤل، العطاء والأخذ، الشقاء والسعادة، وقد يسترعى انتباهكم وتتساءلون لماذا بدأت بذكر تلك المشاعر التى تحمل فى طياتها معانى الحزن والبؤس والتعاسة، أكثر مما تحمل من أحاسيس ومشاعر البهجة والتفاؤل والسعادة.. لا شك أن مرجع ذلك هو أن مشوار حياة هذا الأستاذ الجليل قد حفل بالحزن والشقاء والألم أكثر مما حفل بالبهجة والسرور والأمل.

شق أستاذى طريقه فى الحياة والدراسة، وتحمل شظف العيش فى المراحل الأولى من حياته، وعاش معيشة المفكرين الزاهدين لا تستهويه مظاهر الأبهة، ولا يميل إلى الحياة الصاخبة اللاهية، ولا يحفل برغد العيش ورفاهيته، بل كانت سعادته حين يستكن فى نهاية يومه الشاق- المتنوع بين الدرس والمحاضرة، بين الندوة والحوار، بين المناقشات العلمية والمشاركة الثقافية - فى صومعته وبين أحبائه ورفقائه من أمهات الكتب، وذخائر المؤلفات والمراجع، بين فلذات أكباده من مؤلفاته

وبحوثـه وإبداعاته فى مجال الفكر والفلسـفة والثقافة.. كان عطاؤه بلا حـدود فالتف حولـه الكثيرون، لم يدخـر وقتا ولا علمـا ولا فكرا ولا مشـورة، وإنما وهب الجميـع دون تفرقة فقد كان يتعامل مع الإنسـان كإنسـان فى علاقة زمالة أو صداقة أو أخوة أو أبوة علاقة مجردة من كل أنواع المطامح والمطامع قلما نجد لها مثيلا فى يومنا هذا.

وحين شـرعت فـى كتابة كتاب عن مشـوار حياة أسـتاذى الجليل ومسيرته الفكرية الرائعة، وجهوده المتواصلة طوال خمسين عاما مدافعا عن الحرية والعقلانية والتنوير، شـعرت بأهمية وصعوبة هذا العمل، وعظم المسـئولية الملقاة على عاتقى خاصة أنه كان متشعب الاهتمامات، متعدد الأنشطة والمجالات.. كان له أحباء وأصدقاء ومريدون، كما كان له حساد وأعداء ومبغضون.. ولكن برغم هذه المصاعب إلا إننى سأحاول الاقتراب قدر اسـتطاعتى من حياته الشـخصية والتى لم يكن يحب أن يتحـدث عنها كثيرا ربما لأنها تذكره بذكريات ألم وفراق أحب الناس إليه «أخيه صغيرا ووالدته» لكننى سـأتناول باسـتفاضة عالمه الفكرى وحياته الثقافية ونشاطه العلمى والذى كان يجد نفسه دائما منغمسا فى قضاياه ومشكلاته ومعارفه.. وقد ساعدنى فى ذلك أننى قد تتلمذت على يديـه منذ أكثر من أربعين عاما حين كنت معيدة بكلية البنات جامعة عين شمس، وكان أسـتاذى منتدبا للتدريس بها فأتاح لى ذلك اختياره مشـرفا ومناقشا لرسالتى للماجيسـتير والدكتوراة، وكان من الطبيعى أن أطلـع على جميع ما كتـب، وأن أناقشـه وأحاوره، بل أستشـيره

طوال مسيرة حياتى العلمية فيما أقدمه من بحوث ومؤلفات للترقى أو المشاركة فى المؤتمرات والندوات أو التقدم للحصول على جوائز الجامعة والدولة. ولم يكن يضن علىَّ مطلقا بتلك المشورة أو النصيحة، وكم كان يمد لى يد العون الفكرى مشجعا ومتابعا لكل ما أكتبه أو أنشره فى الصحف والمجلات الثقافية، أو فيما أتقلده من مناصب إدارية، وكم دخل فى معارك نصرة للحق ودفاعا عن الأبرياء المخلصين الذين وقفت الشللية والمصالح الذاتية عقبة فى سبيل حصولهم على حقهم المشروع.

كما إننى لجأت إلى أقرب تلاميذه وأصدقائه المخلصين من أمثال د. أحمد الجزار،الدكتور جمال سيدبى والدكتورة رجاء أحمد على والدكتور حسن عبد الحميد وغيرهم ومن الباحثين المقربين له ومنهم الدكتورة نادية البرماوى والدكتور أحمد حسن والدكتور عزمى زكريا والدكتور زكى سالم وقد أمدونى بالكثير من المعلومات التى ساعدتنى فى إلقاء الضوء على بعض الأمور والمواقف الغامضة التى ربما أكون قد غفلت عنها.

احتل عاطف العراقى مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر الفلسفى العربى، فهو أستاذ بكل ما تحمله الأستاذية من معان سامية، وقيم نبيلة، ولم يكن نشاطه محصورا داخل مدرجات الجامعة فحسب، بل كان شعلة نشاط وكانت مشاركته الفكرية داخل مصر وخارجها. ويقينى أننا إذا ذكرنا الفلسفة العربية- وليست الإسلامية كما كان يصر على تسميتها بذلك فى تصديرات أكثر كتبه وثنايا مؤلفاته،

على رغم رؤيتى المخالفة له - فلا شك أنه قد أسهم بدور كبير فى بحث ودراسة تاريخ الفكر الفلسفى العربى بمختلف مباحثه وقضاياه ومشكلاته وشخصياته، بل والتأريخ له مسلطا الضوء على الجوانب العقلانية المضيئة فى هذا الخضم الهائل من التراث سعيا لربط الماضى بالحاضر لاستشراف المستقبل واستلهام جذور العقلانية والتنوير من تراث فلاسفة العرب خاصة فيلسوفه المقرب إلى فكره ومنهجه «أبو الوليد بن رشد». وهل يمكن أن نتغافل عن افتتانه بفلسفة وفكر ابن رشد العقلانى التنويرى حتى إنه خصص أكثر من مؤلف لعرض وتحليل فلسفته ومنهجه العقلانى الذى قضى فى رحابه أكثر من أربعين عاما حتى إنه يشير إلى ذلك فى الصفحة الأولى من عنوان أحد مؤلفاته ويؤكد ذلك بقوله «لقد قضيت مع التراث الرشدى مدة من الزمان زادت على أربعين عاما وتكاد تقترب من نصف قرن من الزمان حتى إننى أكاد أتنفس أفكار ابن رشد..... نعم أتنفس أفكار ابن رشد وأركز على منهجه أساسا، ولا أتصور لنفسى حياة بدون منهج هذا الفيلسوف الشامخ العملاق».

أثرى د. عاطف العراقى الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى بعشرات المؤلفات التى حملت فى مضمون صفحاتها دعوته إلى حياة النور والتنوير من خلال منهج عقلانى تجديدى رأى أنه المنقذ للأمة من ظلام الجهل والتخلف والخرافة.

وكـم شـهدت المحافـل الدولية، والمؤتمـرات العلميـة الكثير من الحـوارات الجـادة والمناقشـات الحاميـة دفاعا عن منهجـه ورؤيته التجديدية التنويرية التى آمن بأن اتباعها سيعيد إلينا مجدنا المفقود، وسـيجعل لنا مكانة بـين دول العالم المتحضر فلذلـك جاهد من أجلها متخـذا من النقد والتهكم والكتابة والتدريس أسـلوبا للتنبيه ومنهجا للتغيـير وقد كان يعتبر ذلـك بداية التحرر العقلى من أسـر العادات والتقاليـد الفكرية والثقافية البالية، وكأنه كان فى سـباق مع الزمن إذ أخذ يلح على توصيلها بشـتى الطرق غير مبـال بما قد يتعرض له من محن ومكائد واتهامات زائفة لكنه كعادته كان يخرج من كل ذلك أكثر قوة وأشد صلابة.

كان رحمه الله عف اللسـان، دمـث الخلق، صادق القـول والفعل، ملتزما ودقيقا فى تعاملاته وارتباطاته... أفكاره حياته، وحياته فكره إلى حد كبير، وكانت قيم الصدق والوفاء والتسـامح من أكثر القيم التى لمسناها فى سـلوكه وخبرناها فى مقاربته وعشـرته، فقد كان حريصا علـى الالتزام بهذه القيم وتطبيقها علـى حياته، وإذا كنا نجد من بين تلاميذه وأصدقائه من بادله حبا بحب وتسامحا بتسامح فإننا نجد أيضا عـددا ليس بالقليل قد ناصبه العداء وملأت نفسـه الأحقاد والضغائن، ولكن ماذا نفعل إزاء هذه النزعات البشـرية التى كان مدركا لحقيقتها وعلـى علم بها وفهم دقيق لها، وقد أشـار إلى ذلك فى كتبه التذكارية حـين تحدث عن موقف مماثل من بعض الطلاب تجاه أسـتاذ قدير كان

العراقـي وغيره من أصحاب القيم النبيلة يكنون له كل تقدير واحترام. إذ يقـول «لقد أصبح الذس غير الناس، وتطاول الأشـباه على الأصول، واعتـدى الجهلاء على العلماء، لقد تحول أكثرنا للأسـف الشـديد إلى ذئاب بشرية ينهش الواحد منهم لحم أخيه حيا وميتا ويقوم بامتصاص دمائـه بطريقة ينزوى مامها خجلا أشـد الحيوانات فتكا بالإنسـان، لقد تحولت كلماتنا إلى خناجر أشـد فتكا من أخطـر القنابل، إن كلمة واحدة مسـمومة قد تقضى على إنسـان شـريف بطريقة أشد إيلاما من وسائل مادية أعدت للخراب والتدمير».

والآن ونحـن نعيش هـذه المرحلة المضطربة، ونسـتعرض ما مر بنا فيها من أحداث هل أكون أكثر تشـاؤما من أسـتاذى حين أقول حقا لقد صدق حدسـك وثبت إحساسـك؟ أم أحاول أن أكون أكثر تفاؤلا واقتناعا بأن الحاضر سـوف يتغير إلى الأفضل، وأن الغد سـيكون أكثر إشـراقا وسـوف يأتي بأمل جديد، لن تضيع كلماتك وأفكارك سدى بل ستكون هادية ومرشدة لجيلنا الحالى والأجيال القادمة.

لقـد حاولت فى هذا الكتـاب تقديم صورة صادقة عـن حياة عاطف العراقـي الفكرية والثقافية وآثرت أن أعرضه فى صورة فصول تشـتمل علـى جوانب حياته وفكره وثقافتـه ومنهجه لذا فقد قدمت فى الفصل الأول – عاطف العراقى الإنسان وقيم الوفاء والإخلاص والتسامح– رؤية لشـخصية العراقى من خلال عرض ما تيسر لنا من معلومات عن حياته ومؤلفاته مع التركيز على القيم النبيلة التى ارتبطت بسلوكه وحياته.

ثـم تناولت فى الفصل الثانى المنهج التجديدى عند العراقى ونزعته التنويرية عارضـة لمنهجه النقدى ودعائم نزعتـه العقلانية، ورؤيته المسـتنيرة لمسـتقبل العالم العربى كما آثرت أن أعرض برؤية تحليلية نقدية أهم مؤلفاته فى مجـال التجديد والتنوير وهو كتاب ثورة العقل فى الفلسفة العربية.

أما الفصل الثالث فقد تناولـت فيه العلاقة بين التراث والتجديد عند العراقى، مفندة لدعوات التشكيك فى رفضه للتراث ودعوته إلى الاقتصار على التحديث والمعاصرة، عارضة لرؤيته الايجابية لمفهوم الـتراث وموقفه الإيجابى منه، ثم تناولت فى الفصل الرابع: رؤيته للثقافة والمثقفين وذلك من خلال عرض رؤيته التنويرية لقضايا مهمة مثل أسـطورة الغزو الثقافى، دور التلفزيون (كجهاز إعلامى) ودور الأحزاب (كمؤسسات سياسـية) فى البناء الثقافى ثم عرضت رؤيته التنويريـة لدور الفنون فى تشـكيل وعى ووجـدان وثقافة الأجيال المتعاقبة ثم وجدت أنه من الواجب علىَّ أن أعرض فى الفصل الخامس نقدا وتحليلا لبعض الكتب التذكارية التى أعدها وصدرها وأشـرف عليها تجسيدا لقيم الوفاء والإخلاص لأصحاب هذه الكتب، وتقديرا منـى لما بذله من جهد خارق ومشـقة فى سـبيل إعدادها وإظهارها للقـارئ فى صورة مشـرفة وهى وإن دلت على شـىء فإنما تدل على مـدى اتسـاق خصاله وصفاتـه النبيلة من حب وإخـلاص ووفاء مع سلوكه وأفعاله الحميدة.

وبعد فإذا كان الدكتـور عاطف العراقى قد غادرنا إلى العالم الآخر، فإنـه خالد بمـا تركه مـن مؤلفـات وآراء ومواقف نبيلة لن تنسـى، خالد بقيمه ومثله التى دعا إليها والتزم بها قولا وفعلا.. حقا لقد غادر عالم الأحقاد والضغائن، عالم التناهى ليبقى فى عالم الخلود واللاتناهى وهاهـى ذى مرثيتـى فى ذكرى وفاته التى أقيمت فى قاعة المناسـبات بالكنيسـة الكاثوليكية الكومبونيان وحضرهـا لفيف من أخلص وأوفى تلاميذه ومحبيه ومريديه وزملائه...

خسـرت مصر والعالم العربى عالما فذا ومفكرا رصينا، رحل عاطف العراقى عن دنيانا تاركا رصيدا من الحب والعطاء والوفاء سوف تتناقله الأجيال جيلا بعد جيل لسنوات قادمة.

أحـب وطنه وعاش من أجلـه لم يغادره، لم يغره، ويلعب برأسـه ومبادئه، ذهب الخليج ولم يخش أو يهاب سـيف السـلطة وبطشها، كان شـجاعا فى مسـاندة الحق والدفـاع عنه إلى درجة كلفته خسـارة صحته غير مبال بما يدبره الحاقدون ويثيره الشامتون والمنتفعون، فلم يكن يخشى فى الحق لومة لائم.

كان كريمـا، سـخيا فى حبه وعطائـه وإخلاصه، مثلمـا كان حادا فـى غضبه ونقـده ودفاعه عـن المظلومين، أحب الناس جميعا واتسـع صدره لهفواتهم، وأسـعد الكثيرين من طلاب العلم والمعرفة ولم يبخل عليهـم بعلمه أو فكره أو توجيهاتـه، فبادله القليل منهم حبا بحب، وصدقا بصـدق، وإخلاصـا بإخلاص اعترافـا بجميلـه وعرفانا لمودته

واعتــزازا وتقديرا لمحبته... وعانده الكثيرون جحودا ونكرانا وأنانية في سبيل مصالحهم ومنافعهم الخاصة.

هذا هو عاطف العراقي الإنسان، أما عاطف العراقي المفكر والفيلسوف فهو الفارابي في عزلته التأملية، السيناوي في انتشاره وشهرته، الصائغي متوحدا في صومعته، الرشدي في عقلانيته وتنويره.

تعود معرفتي وعلاقتي بأستاذي الكبير إلى ما يقرب من أربعين عاما، وإذا اعتبرت أن مسيرة حياتي العلمية كانت سلسلة من المآزق والصراعات، فهو من وقف بجانبي مساندا ومدافعا. خاض كثيرا من المعارك من أجلي ومن أجل غيري من طلابه وتلاميذه المظلومين والذين أخذوا بجريرة أنهم تلاميذ عاطف العراقي.

هكذا حكمت الشللية المناخ الثقافي كما حكمت المصالح الذاتية والمادية المناخ العلمي.

اعتزل عاطف العراقي الحياة العامة، وعاش متوحدا في صومعته الفكرية متأملا أحوال البشر وطبائعهم الحادة المتلونة فانعكس ذلك على إبداعاته الفكرية، ومؤلفاته الرصينة، دافع دفاعا مستميتا عن الحرية الفكرية والعقلانية التنويرية، وكان يأمل في مجتمع تسوده العدالة والمحبة والتراحم، سلط سهام نقده اللاذع - في العديد من مؤلفاته ومقالاته وندواته ومؤتمراته - إلى الانغلاق الفكري والتزمت العقدي فكان جزاؤه الوقوف أمام محكمة الجنايات. لولا أن الله كان معه

فخرج منها سالما بلا إدانة بتبرئة قضاة شرفاء أدركوا مغزى أفكاره ومضمون دعوته التنويرية التى لا تتعارض مع نص دينى ولا تنكر أصلا ثابتا.

وعلى رغم ذلك فلم يثنه ما حدث عن استكمال مشروعه التنويرى الذى بدأه بثورة العقل ثم تجديد المذاهب الفلسفية والكلامية ثم المنهج النقدى عند المفكرين والفلاسفة ولم يبعده مرضه عن المشاركة بالرأى والرؤية فى الندوات الجامعية والمحافل الدولية وقاعات الدرس والمحاضرة... ظل حتى آخر رمق فى حياته يعطى طلابه وتلاميذه مما أجاد الله به عليه من فيض العلم وغزارة الفكر آملا فى جيل يحمل الشعلة وينطلق بإبداعاته إلى التجديد والتغيير... وعلى رغم غبطته وسعادته الغامرة بالثورة المصرية التى اعتبرها المنقذ من الضياع والتفكك والانهيار، إلا إنه كان حذرا فى تفاؤله خوفا من أن يلتف عليها خفافيش الظلام ودعاة الجمود والانغلاق وأصحاب المصالح الخاصة... ويبدو أن توقع أستاذى كان صحيحا فيما نراه الآن من ثورة فى مهب الريح.

رحم الله المفكر القدير وأسكنه فسيح جناته وحفظ لنا مسيرته العطرة لتكون شُعاعا يضيء ظلام الجهل والجمود للأجيال القادمة.

زينب عفيفى